كينا كوزانيت

بابل

رواية عن دار نشر كارل هانزا

ترجمة :لبنى فؤاد

بودنزيج، قال كولدفاي عندما وصلا بعد أيام أو أسابيع إلى مدينة القسطنطينية وهو يشير في اتجاه يعرف الاثنان إلى أين يقود.

د. كولدفاي؟

امض بودنزيج، علينا أن نفترق، تطوع في الحرب، ربما لا يزال في الإمكان أن تجد على جبهة القتال ميتة لائقة.

ذهب وتطوع في الحرب، وقع بفلسطين في الأسر، وبعد عودته استأنف عمله في متاحف برلين، والذي يقوم كما كان آنفًا بمدينة بابل على وضع رقم قيد للقطع الأثرية المكتشفة.

كانت صفرة بصبغة حضارة ما بين النهرين. كأنما صنعت من أجل الوقوف لها، من أجل النظر إليها، من أجل رسمها – طريقته المفضلة في تحديد ملامح خريطة هذه المنطقة، طمي يظل عالقًا بالأذهان، طين يتقلب في حركته بين ثنايا الماء.

تطلع كولدفاي من نافذة حجرة مكتبه، لا شيء أمامه، لا يرسم أي خرائط، كان قد استلقى فوق مضجعه الذي يعد جزءًا من بسطة النافذة، وأخذ يراقب النهر المتدفق بامتداد الأطلال، جذب أنفاس غليونه وتأمله كأن لم يتأمل نهرًا قط، دون أن يفكر خلال ذلك في شيء آخر، في شيء أكثر أهمية، السفينة، الرحلة، الهدف، أجزاء جدارية نبوخذ نصر، أجزاء جداريات بوابة عشتار والقصر وشارع الموكب المتراصة في فناء مبنى التنقيب فوق بعضها البعض داخل مئات كثيرة من الصناديق، والتي كان ينبغي نقلها من مدينة بابل نزولا باتجاه مصب نهر الفرات عبر ثلاث قارات إلى مدينة هامبورج، ثم عبر نهر الإلبا، الهافل والشبريه حتى منطقة كوبفرجرابن إلى الجسر الواصل لمتاحف برلين.

مرة أخرى: بضع طيور على الضفة، تحط على الماء، تقلع من فوق الماء في تؤدة، أسفلها طمي مكون من طين، من سكون وماء، تكون المنزل من لبنات طينية محروقة كي تتحمل الرطوبة والرياح والرمال، وكي لا تسوى جدرانه بالأرض مجددًا وتعود فتنجرف إلى النهر حتى لو بعد عشرات أو مئات السنوات بعد أن كادت تنهار تدريجيًا بسبب أحوال الطقس.

الاهتمام بالأنهار، تناول كولدفاي كتاب ليبرمايستر *مدخل في طب الباطنة*، وضع الكتاب بحيطة فوق بطنه وكأن بمقدوره بذلك التقليل من الأعراض، ثم تطلع نحو الجهة المقابلة إلى الباب، نظر عبر منخل الحشرات به ملاحظًا العثة إلى الممر المحاط بالأعمدة الخشبية على الجانبين، والذي يمكن الدخول منه عن طريق الفناء فيما يشبه عبور شرفة مغطاة إلى حجرة كولدفاي بالطابق العلوي.

كم يمكن أن تقدر المسافة حتى باب منخل الحشرات: متران، ثلاثة أمتار؟

بدا أن منخل الحشرات يتحرك من آنٍ إلى آخر، كأن هناك بعض الهواء يتسلل إلى الداخل في أوقات متقطعة لكنها تقصر باطراد، إلا أنه لا يضفي برودة على المكان، كذلك لا يمكن حتى الإحساس بتأثير وجوده على الجلد كالمعتاد من الهواء المتحرك، كأن هناك شيء يريد الوصول إلى حجرة كولدفاي إلا أنه يأبى الظهور في صورته الكاملة، شيء متطفل مثل أزيز تكنولوجيا – كليك-كليك-كليك – آلة التصوير الفوتوغرافي التي وصلت المكان بالأمس،

والتي أخذ اثنان أو ثلاثة من مساعدي التنقيب يستخدمونها بالقرب من الباب في محاولة لالتقاط صورة لقطعة أثرية مكتشفة.

يعلم كولدفاي طريقة استخدام آلة التصوير الفوتوغرافي، يعلم كيف يمسك المرء بشيء احتقره، ويتخلى عن شيء أحبه، ولم تكن مهمته أن يريهم كيف يفعلوا الأخيرة.

تطلع ثانيًا خارج النافذة.

ثم عاد بنظره إلى الباب الذي بدا بفعل خداع بصري وكأن منخل الحشرات به يتضخم إلى مسافة ثلاثة أمتار، أو ربما مترين و – أغمض كولدفاي عينًا – تسعين.

عصف أنين برأسه، كاد أن يعبر إلى شفتيه عندما تخيل أن عليه الآن توجيه أمرٍ ما إلى أحد، أنصت كولدفاي إلى صوت بداخله كيف أنه لم يقدر على نطق عبارة واحدة من عباراته المعهودة، كيف أنه لم يستطع الضحك، وكيف أنهم بذلك لم يستطيعوا الإقرار بروح فكاهة غراب البين عنده، تلك التي يُبقي بفضلها في العادة أحوالًا مثل هذه تحت السيطرة، كتبوا بعد ذلك تلغرافًا إلى قنصل بغداد كي يبلغ بدوره دكتور هيرلا، حاولوا على الأقل كتابته وكيف أنه، كولدفاي، لم يستطع الضحك مجددًا بينما كان يتخيل سلك التلغراف وقد قصف العرب عوازله الخزفية على مسافات منتظمة مما سبب كثيرًا من القلق للإدارة التركية، إلا أنه رفع معدلات النجاة للغاية بالنسبة للنسور الذهبية القابعة بالأعلى فوق الأعمدة، كيف أرادوا بعد ذلك تضميده بأربطةٍ للبطن، وأنه سمح لهم بذلك لأن جلده انقبض بفعل البرودة، وأنه استطاع تخيل بعض الهواء يتسلل إلى الداخل، مع أن حتى قدرته على التخيل لم تكن كافية لإرجاع سبب حركة باب منخل الحشرات إلى التأثير المدروس لتيار الريح.

نظر كولدفاي إلى الخارج، أراض طينية عائمة، هدوء رسوبي، الطيور الآن فوق صفحة الماء، تنقر في الطين المكون من الرمال، الغرين والطمي.

عاد إلى الباب: متران وخمس وتسعون؟ سبع وتسعون؟ خمس وتسعون.

تنهد بصوت عالٍ، لكن ليس عاليًا للحد الذي يمكن سماعه، كان كافيًا أن تراه: مدير بعثة تنقيب يدخن غليونه وهو أكثر بهجة قليلًا عن المعتاد، بدا وهو نصف جالس، نصف مستند إلى الحائط كأنما يقرأ كتابًا وليس كأنما يرنو تقريبًا دون انقطاع من خلال فتحة نافذة مخدعه، موضع استلقاء نُفذ تصميمه تفصيليًا وفقًا لرغباته، تطل حجرة كولدفاي دونًا عن باقي أجزاء المنزل بأكمله على منظر فريد، النهر الذي يحفه النخيل الصاعد حتى نهاية أطرافه إلى أقصى شمال

المساحة المخصصة للتنقيب، مما كان يمكن أن يتيح لكولدفاي نظريًا توجيه اهتمامه إليه لمدة تدخين غليون كامل، لو لم يرغمه أزيز آلة التصوير المشتت لانتباهه على الالتفات مرة تلو الأخرى عن النظر إلى النهر ومجراه، وإدارة رأسه آليًا عن النافذة إلى الباب كلما ترامى إليه صوت خلال الأربعين دقيقة التي احتاجها لتدخين غليون.

يمكن تقديرها بمترين وسبع وتسعين، لما لا؟

لذلك لا، كأن بمقدور المرء قياس أبعاد ما بعينيه وحدها، كل أثري كان كذلك معماريًا سوف ينهض الآن، واضعًا يده اليمنى فوق بطنه ليقيس المسافة بطريقة المشي، خطوة تلو خطوة، من المضجع حتى باب منخل الحشرات، من الباب حتى نهر الفرات، بامتداد سور المدينة الذي يبلغ طوله إجمالًا حوالي ثمانية عشر كيلو متر، لكن ليس بأكثر من ثمانين، كما ذكر هيرودوت، إلى شارع الموكب وعبر بوابة عشتار التي هدمت أجزاؤها العلوية ووضُعت الآن داخل صناديق بينما لا تزال أجزاؤها السفلية ترتفع بطول متر، مرورًا بالجدران المزينة بصور الأسود والثيران التي لا بد أن تجعل كل أوربي يتذكر رموز الإنجيليين المؤمنين بالكتاب المقدس، حتى الوصول إلى برج بابل والدوران مرة حول قاعدته ذات الأركان الأربعة، غير الدائرية، كان ذلك يعني أن أي معماري درس علم الآثار وتاريخ الفن سوف يفعل ذلك، وبرغم أن العمارة، علم الآثار وتاريخ الفن بدوا فيما كان يفعله كولدفاي شيئًا واحدًا لا يمكن اجتزاؤه إلا أنه كثيرًا ما انتابه في السنوات الأخيرة شعور أن عليه اختيار مجال تخصص واحد، هل خالج بورشرت الذي كان معماريًا وعالم مصريات مثل ذلك الشعور؟ لم يدرس دوربفلد مجالًا آخر غير العمارة، هل كان حال فيركو هكذا أيضا؟ هذا الذي عمل كعالم أحياء ما قبل التاريخ، إلا أنه كان كذلك سياسيًا وفي الأصل طبيبًا، وحدها بيل كانت ملهمة من جميع النواحي، التقطت أيضا صورًا فوتوغرافية إلا أنها كانت غالبًا ما تتجاوز الشخص كأنه لم يقف لتوه بوضوح أمام مدينة المدن في وضع التصوير، أمام أسطورة عمرها آلاف عديدة من السنوات كشف نموذجها الأصلي الآن بعد إزاحة عشرين متر من أنقاض (العصور الوسطى المبكرة، عصور الساسنية، البارثية، السلوقية) كيف وصلت إلى القرن العشرين.

لا جدوى، لم تؤثر سكينة النهر على حالة كولدفاي البدنية، حالة كولدفاي البدنية هي التي أثرت على النهر، حولته إلى نهر منزوع السكينة، يتحرك بضعف في أنحاء الأرض المحيطة منذ أن عرف أنها تسلبه ماءه، نهر لا يستطيع الإفلات من قدره بأن يسحب في طريقه قرونًا أبدية من نفس الطين غير بادي الضر، والذي يعلو حتى يقارب سطح الماء فيجعل المراكب

كثيرًا ما تجري فوق أرض القاع، ويجعل المرء يفضل استخدام عربة تجرها الخيول من حلب إلى بابل ليستغرق الطريق تقريبًا ثلاثة أضعاف الوقت الذي تحتاجه سفينة من مدينة هامبورج إلى أمريكا.

كان فيركو دون شك بالأحرى عالم باثولوجي أكثر منه رجل سياسة رغم أن الخط الفاصل بينهما – إن كان له وجود من الأساس – كان أشبه بموجة متحركة، وبأسلوب فراتي خاص نزع من أحد المنحنيات طميًا ليضعه في المنحنى التالي، هل يمكن أن يكون السياسي فيركو قد عصب عينيّ عالم الباثولوجي فيركو وهو يفحص عينة أنسجة فريدريش الثالث، فلم يستطع رغم صلة الصداقة تأكيد إصابته بسرطان الحنجرة الذي أوشك الأخير على الموت بسببه، لم يدرس فيركو علم الآثار إلا أنه قرأ مبادئه النظرية بالتفصيل،على العكس منه اطلع كولدفاي بما يكفي على الكتب الطبية الأساسية مثلما اكتشف هيرلا في إحدى زياراته الأخيرة، ولسوف يكتشف الآن أيضا ما لم يأت لأجله، ذلك لأن كولدفاي لا يمانع مبدئيًا من مقابلة صديقٍ قديمٍ مجددًا، إلا أنه رغم احتياجه الشديد للتشخيص لا يقدر على الخضوع ليد علم الطب التطبيقي، فالأطباء في نهاية الأمر حرفيون، يصلحون ما لم يصنعونه.

لم يكن من الضروري قطع المسافة حتى باب منخل الحشرات مشيًا، يمكن الزحف أيضا، في الوضعية المعتادة للجسم باستقامة لكنها أفقية، متخلصًا من قوة ثقل الجسم، محولًا النشاط الحركي المدخر إلى طاقة كلام وأخيرًا يسأل:

ماذا تفعل آلة التصوير الفوتوغرافي؟ إنها تتولى عنكم المسئولية، ماذا تفعلون أنتم؟ إنكم تضعون ثقتكم في جهاز يصدر تبعًا لأمركم صوتًا آليًا، كأننا سوف نتولى تنظيم أعمال الحفر من داخل مقر بعثة التنقيب دون أن ننظر مرة خلال النافذة، نشاط ذو طبيعة نظرية بحتة، هل أنت من المنظّرين يا رويتر؟

كلا، لن يسأل كولدفاي عن ذلك، كذلك أيضا لن يذكرهم للمرة المائة كما يفعل كيف قام المنظّر السابق أو قبل السابق أو قبل قبل السابق قبل أن يبعدوا جميع المنظّرين عن أعمال التنقيب، وهو يحمل في يده قاموس رموز الكتابة المسمارية برجاء المعماري كولدفاي أن يشق جدارًا استخرج للتو – إذ ربما يكون بداخله شهادات تأسيس أو لوحات طينية معاد استخدامها يمكن أن تعد ترجمتها بديلًا عن أي اكتشاف أثري، إذ ليس من لبنات الطين والمعمار، هكذا قال المنظّر، بل من لوحات الطين والكتابات ينبثق معنى الجدار، ينبثق معنى المدينة ومجرى النهر

والشرق والبشرية بأسرها، تلك التي مدت أشرعتها مثل ضوء الشرق الصاعد من مهد الهلال الولّاد باتجاه الغرب معطية إشارة بدء كل ما كان يقبع خلفها.

لم ينوِ كولدفاي قول أي من هذا، لأنه لم يملك قوة إخراج عبارة كاملة أو حتى فقط كلمة أطول، كذلك لم يكن بحاجة لإظهار حماقة عابرة على الملأ، على الأخص في موقف يجثو فيه على الأرض خلف باب منخل الحشرات الذي زحف إليه للتو كي ينزع الآلة من بين أيديهما ليشرح لهما طريقة تشغيلها في وضوح شبه منظم:

هكذا، هكذا، وهكذا، ليس هكذا!

هكذا؟

كلا، هكذا!

حدقوا بنظرهم في كولدفاي الذي ظل برهة جاثيًا على أربع في سعادة كبيرة بسبب الرياح الريدانة غير المنتظمة بالخارج، بينما ظل الاثنان طويلاً لا ينبسان بشفة لحد جعله يبدأ في استيعاب ما نجحا في عمله بالتأكيد منذ قليل، لقد أرسلا تلغرافًا إلى دكتور هيرلا، لأنهما بدءا يفهمان أن سبب حالة كولدفاي يمكن أن يكون الثلاثة أباريق من عصير الليمون الذين لم يستطع الإفلات من احتسائهم قبل ظهر اليوم أثناء مفاوضات التنقيب الأخيرة مع الشيوخ، لكن الأرجح أن هذه الحالة هي آخر توابع إحدى تجاربه، رغم أنها كانت هذه المرة غير ضارة تمامًا: أغلق كولدفاي فقط جميع منافذ حجرته، ثم قضى ليالي الصيف داخل المنزل مرتفع الحرارة بدلا من خارجه، كان ذلك هو الجزء الثاني من تجربة بدأها في فصل الشتاء عندما أخذ يجول منطقة التنقيب في ثياب صيفية، عباءة بيضاء مثل أوربا المكسوة بالثلج في هذا الوقت من العام، وفي نهاية اليوم لم ينم في فراشه بل فوق السطح البارد المبلل حتى أخبرته أزمة روماتيزمية حادة عما أراد اكتشافه من خلال هذا الاختبار: متى يصل إلى النقطة التي تتخلى عنه فيها قوة إرادته ويتولى جسده إصدار الأوامر.

كلاك!

لا زالت الصورة في الصندوق كما هي، صورة قطعة أثرية مكتشفة لا توضح إن كانت تظهر القطعة الأثرية المكتشفة أم المحدودية العارضة للمصور، اعتقد في عصر هذا اليوم شخصان على الأقل أنهما أديا عملًا بطريقة علمية عندما قاما بعكس صورة شيء حتى لو كان ما فعلاه هو فقط عكس خواص الجهاز الآلي.

أصدر كولدفاي الآن أنين، كما يفعل المريض بل – بسبب احتمالية قدوم هيرلا في الطريق – بمبالغة حانقة بسبب إحساسه بالإحباط، أخذ يئن وهو ينسحب عائدًا إلى مضجعه، بعد مسافة مترين وتسع وسبعين فقط قطعها زاحفًا، إحباط أنعش رأسه مثل قهوة تركية قبل أن يتولد لديه الشعور المعتاد بعودته مجددًا بعد تيه قصير إلى حدود منطقة علمه اليقيني.

لم يستطع النهر أن يكون شيئًا آخر قط سوى نهر يغير مجراه من حين إلى آخر.

لكن كويرشية كانت يمكن أن تكون لغة أو لهجة، لو لم تكن اسم القرية الواقعة بجانب مبنى التنقيب بالمجرى القديم لنهر الفرات في طريق القدوم من الجنوب، والتي كان يقصدها كل يوم بطريقته الودودة بهدف مقايضة كرم الضيافة بعمال التنقيب، كان شيوخها يأتون إليها مع شيوخ القرى المجاورة (الجمجمة، سنجار، عنانة) من سفر، يجلسون عدة ساعات أمام مضيفيهم بالضبط كما جلسوا أمامهم قبل وقت الظهيرة داخل ما يسمى بالنسبة لهذه الزيارة "المضيف" المعد من أجلهم في مبني التنقيب، يشربون ويدخنون في ترتيب معين القهوة ثم الليمون ثم القهوة مرة أخرى حتى تضيق العصافير المتجمعة هناك تحت السقف المصنوع من جريد النخل بالدخان المتصاعد من أنوفهم، ثم ما يلبث أحدهم أن يتساءل عن سبب الزيارة.

كان يمكن أن تكون كويرشية لغة.

كونك المضيف يعني أن تلتف بعباءة، تبدو مثبتة بواسطة سلسلة ساعة موجودة بشكل غير ظاهر ولكن مميز داخل جيب الصدر الأيسر، تضفي على صاحبها حركات إيقاعية وكأنه يسير – حتى أثناء النشاط الجامد لوضعية الجلوس – بشريط قياس وفقًا لإيقاع مرسوم ليحسب أبعاد شيءٍ ما بالزيادة والنقصان، ناظرًا أثناء ذلك من خلال بعده الخاص إلى جاره في الجلوس: رويتر الذي يتحرك بالكاميرا، بودنزيج (ماذا كان يفعل بودنزيج هنا؟)، فيتسل، نظرة قصيرة نحو الباب، ياليت كل نفاذ الصبر هذا يخرج، أو لا يدخل منه أي ضيف آخر، نظرة نحو السقف: لا زالت الطيور تتنفس.

أصبحت كويرشية لغة المنطقة، حيث لم تكن الصحراء اسمًا مقبولا للتعبير عن طبيعة المكان ذي السهول المصبوغة بلون بلاد الرافدين، والذي تكون شكل سطحه الجبلي من الخليج الفارسي حتى أقصى جبال طوروس من أكمة ممتدة، تلال من صنع البشر، آثار في شكل طبقات فوق بعضها البعض، في بابل أبنية نبوخذ نصر فوق أبنية أبيه نبوبولاسر، وجده أحد خلفاء الملك حمورابي الذي وجدت مواده القانونية الشبيهة بالقوانين التوراتية التي ترجع إلى القرن 18 قبل الميلاد في الشرق كله، لكن ليس في مدينة بابل كما يبدو، اكتشفها الفرنسيون في مدينة سوسة

عاصمة عيلام منقوشة فوق مسلة وعرضوها في متحف اللوفر، اكتشفها الإنجليز على لوحات طينية في مدينة نينوي، عاصمة الحاكم الآشوري أزوربانيبال الذي أمر في بابل بنسخ نصوص قوانين ولوحات طينية بابلية أخرى من أجل إنشاء مكتبة خاصة من تلك النسخ قبل أن يدمر المدينة عام 648 قبل الميلاد، تكونت المكتبة من خطابات من بابل، عقود من بابل، شهادات من بابل، نصوص إدارية من بابل، قوائم ملكية بابلية، أغان، صلوات، إرشادات ممارسة الطقوس، نصوص طبية، فلكية وأدبية لم يدمرها نبوبولاسر، أبو نبوخذ نصر كما يبدو بدافع احترامه لحضارته الخاصة عندما عاد للانتقام منهم في نينوي مما جعل هذه الوثائق الآن بمثابة شواهد على مهد الحضارة، وجعل منها عامل جذب لأعداد هائلة من زوار المتحف البريطاني، بينما كان جل ما فازت به الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية، تلك التي نظمت عمليات التنقيب الألمانية في مدينة بابل تحت رعاية الملك ويليام هو فقط صور فوتوغرافية لأرفف كتب مكشوفة بدلا من أن تحظى بمكتبة حقيقية.

كان ينبغي على كولدفاي إلغاء جلسة مفاوضات التنقيب قبل ظهر اليوم.

لم يستطع النهر أن يكون شيئًا آخر قط سوى نهر يغير مجراه من حين إلى آخر، مفاوضات التنقيب لم تكن مفاوضات تنقيب لو لم تجرِ على نفس الوتيرة دومًا، لو لم تنتهِ إلى التحول لجلسة ألمانية، يكون فيها تكرار وتوقيت ما يُقال ليس أقل إجهادًا.

لم يجدر بكولدفاي الذهاب إلى تلك الجلسة، لم يجدر به حتى النهوض من فراشه في الصباح ليكون عليه بعد ذلك مباشرة الرقود ليتطلع من النافذة بينما يحاول أن يبدو كأنه يدرس في كتاب ليبرمايستر *مدخل في طب الباطنة*.

استيقظ بدلا من ذلك في السادسة صباحًا ليتناول أقل قدر من طعام الإفطار، ثم يقود زائرًا من ألمانيا في جولة إرشادية بأرجاء مكان التنقيب قبل بدء المفاوضات، ذلك لأن حرية الحركة سوف تقيد بعد ذلك لعدة ساعات، كذلك لأنه لم يكن قد شعر بعد باحتياج لتقليل حركته لأقصى حد ممكن عندما قرر بالأمس عمل الجولة الإرشادية، قاد كولدفاي الزائر، طالب جامعي يدرس علم الرياضيات، قدم لدهشة الجميع من مدينة لايبزج بالدراجة، قاده كولدفاي مباشرة إلى ضفاف نهر الفرات لإلهائه في الحال عن التأكد من المعلومات التي سمعها في الوطن من خلال المحاضرات العامة للمنظّر فريدريش ديليتسش، محذرًا إياه من درجات الحرارة المخيمة بالفعل في ذلك الوقت من كل صباح على المدينة، والتي لا تستطيع قيادة دراجة الاستهانة بها معولةً على أمل أن تخفف رياح حركة الدراجة منها، قال طالب الرياضيات أن الكائنات المجنحة

بالنقوش الآشورية، تلك الأشكال المجنحة التي قُصد بها حراسة قصور الملوك الآشوريين، ألا تبدو بالضبط مثل الملائكة الذهبية التي شرعت أجنحتها فوق التابوت حسب وصف العهد القديم؟ أن الكتاب المقدس لا يتألف من قصص أسطورية، كما ذكر المنظّر ديليتسش في محاضراته، وأنه ليس كلمة الرب، أن هذه القصص قد حكيت بنفس الطريقة من قبل، هكذا قال المنظّر ديليتسش، وأنه قد أوحى بها أرباب آخرون قبل نشأة المسيحية بقرون، أو أنها حتى قد حدثت بالفعل، أن أهل حضارة ما بين النهرين اعتقدوا أن البشر قد جلبوا لأنفسهم غضب الرب في وقت سابق، وأنهم عوقبوا جراء ذلك بطوفان وذلك قبل تدوين قصة التكوين في الكتاب المقدس بألفي عام، وأنه – هكذا ذكر البروفيسور ديليتسش – لم يكن نوح من استطاع النجاة فوق سفينة بل أوتنابشتم، أو زيوسودرا أو أتراهاسس مثلما كان أوتنابشتم يُسمى في لغات أخرى، يا إلهي، كم كان يبلغ عدد اللغات في الماضي قبل بناء البرج بزمن طويل، يرغب بشدة في رؤية اللوحات المدون عليها تلك القصص، أو على الأقل رؤية أماكن اكتشافها، أو حتى إن لم يمكن تحقيق ذلك فإنه يريد أن يتجول فوق هذا الموضع من الأرض، فوق أصلها الطيني الذي أنتج هذه المعرفة التي جفت هنا في رقودها تحت الشمس لتصبح خالدة:

اخترعوا العجلة، استطاعوا قياس ثنائية الأبعاد، وحساب الجذر التربيعي، عرفوا التقويم القمري، طبقوا قانون فيثاغورث دون أن يعلموا به مسبقًا إلا أنهم في الوقت ذاته اعتقدوا بقوة كحضارة عاشت قبل وبعد الطوفان في مثل تلك الأشياء المضللة مثل التنجيم، اعتقدوا في القدرة على تفسير المستقبل والتأثير عليه بوسائل سحرية.

بعدما شاهد سائق الدراجة مثل أغلب السائحين في مكان ما أشياءً كثيرةً لم تكن في نطاق خبرته ترك كولدفاي المكان يتحدث عن نفسه، وأشار بتلقائية إلى نهر الفرات بالأسفل كأنما عثر لتوه على وجهة مرشدة كان يعتقد بفقدها وهو في دهشة من الترتيب الذي صنعته انطباعات حسية استطاع إدراكها بعيدًا عن الأطلال في أول ساعات بزوغ النهار، قال كولدفاي أو ربما حتى فكر فقط، إذن هذا هو الجنوب من منظور الشمال، أراض رسوبية تغيض بالماء وسط جبال من التراب، وبرغم ذلك هناك بعض الطيور على الضفة تعتبر بالنسبة لأجواء الصحراء غير قليلة أبدًا، طمي جاف، طين معد لبناء بيوت من أجل العيش فيها، التفت كولدفاي نحو محدثه كأنما توقع منه أيضا أن يغير بالضرورة موضوع الحديث أو يتذكر على الأقل إعجابه بطعام الإفطار في الصباح على العكس من كولدفاي، ليس عليه الحديث عن عدد الطيور الكبير أو عن أهمية الرواسب تحت أقدامها، تلك التي ألقى بها النهر على الضفة والتي ظلت تجذب انتباه كولدفاي لحد ما، طين يتحرك بين ثنايا الماء فيتقلب، معرفة تتحرك بين ثنايا الرأس فيتقلب،

بوسائل سحرية، فكر كولدفاي، بوسائل سحرية يمكن التأثير على المستقبل؟ ألم تكن فكرة العرافة البابلية، تخيل أن هناك من يستطيع التنبؤ بالمستقبل هو ما قاد مجتمعهم أيضا نحو تصورهم العلمي أن العالم بأسره يقوم على قوانين معينة لا يحتاج المرء إلا أن يدركها فقط كي يفسر في نهاية الأمر ذلك العالم ويتحكم فيه بمساعدة تلك القوانين؟ إلا أن كولدفاي لم يجد لديه الحماس اللازم لنطق عبارة متصنعة التهذيب كما اعتاد مع ديليتسش كي يقلل في النهاية من قيمة حجته المضادة ويضعفها بعد فترة صمت مصطنعة يتظاهر فيها بأنه قد هُزم، بل فضل أن يطرح عليه ذلك السؤال الذي يسأله دائما في هذا المكان: بسبب هذا السؤال كان ينهي الجولات السياحية عند موضع ما بين الأطلال ومجرى النهر إن لم يكن قد بدأها كما فعل هذه المرة هنا – في بستان النخيل الذي يشكل المدخل الشمالي لمبنى التنقيب، حيث أجمل وفي نفس الوقت أكثر موضع لا مفر من رؤيته في محيط عدة كيلو مترات، حيث بدأ البلح ينضج لتوه في أقصى أعالي الشجر، حيث تهرول بين جذوع النخل أرجل الخرفان، وبين أرجل الخرفان أرجل الأطفال هنا وهناك، وحيث يستقبل الأطفال الضيوف الأوربيين الذين اعتادوا القدوم من هذا الاتجاه وهم يحملون عصي الرعاة، كانوا يرافقونهم عبر بستان النخيل إلى مبنى بعثة التنقيب إن لم يذهبوا – كما اعتادت جيرترودا بيل – أولا في نزهة فوق تلال منطقة التنقيب من أجل تصوير موضع الأسلاف الشهير بقرية كويرشية، وليس كويرشية المتواطئة إلى حد ما وهي ترى مدينة غريبة ترتفع بجانبها معتمدة على نفس مادة البناء، بموروثات بشر بدت لساكني كويرشية كأنها من صنع آبائهم وأجدادهم الذين لم يعودوا يفهمون لغتهم، بالنسبة لساكني كويرشية اكتسبت كويرشية معنًا جديدًا، أصبح معناها الآن الحفر في باطن مدينة موغلة في القدم تحتوي على أفضل مادة بناء، ولكنهم يقفون بجانبها بشعور غير مفهوم أنهم يسيئون فهم شيء أساسي منذ الطفولة، بماضيها في وظيفتها كتلال حطام، وبتلال حطامها في وظيفتها كموضع لتقطيع الأحجار، ألقى كولدفاي بيديه لصوص لبنات بناء خارج الأطلال، ثم عاد وأخذهم بعد ذلك معه لتدريبهم على العمل كحراس، كعمال – مائتا شخص يصعدون ويهبطون التلال من الصباح إلى المساء، يحفرون خنادق، يتولون الحراسة لمدة أربع وعشرين ساعة أو يحملون قصاع محملة بالطين من مستوى لآخر، إلى أعلى حيث قضبان عربة الموقع، ساعدوا في إزالة التلال المصنوعة حتى عمق عشرين متر وتفريغها مجددًا في مكان آخر، عمال احتاج عددهم ودفع أجورهم مقابلة جديدة فور انتهاء كولدفاي من جولة قائد الدراجة، مقابلة لا يعرف لها رقمًا خلال شهور يظل يتفاوض فيها حتى تسقط العصافير من سقف المضيف أمامهم، كم عامل يُسمح لشيخ بإرساله إلى مكان التنقيب، وكم واحد ينبغي على شيخ آخر سحبه من المكان لأنه التزم بذلك الوعد لسبب ما أمام هذا أو ذاك، لم تكن مفاوضات التنقيب مفاوضات تنقيب إن لم تجر على نفس النهج دومًا.

إذن، قال كولدفاي لسائق الدراجة كي ينهي الجولة مبكرًا، فيستطيع بذلك العودة إلى المنزل لإعداد الجلسة مع الشيوخ هناك، لكن أولا من أجل التمهيد للسؤال الذي كان يطرحه على كل ضيف أوربي منذ عام 1899، على الضفة اليسرى للنهر، في ذلك القطاع البالغ عرضه ستمائة متر المكون من نخل، حدائق صغيرة وحقول: كيف يريد أن يُدفن هنا؟ رفع الضيف القادم من لايبزج بصره نحوه بمزيج من حيرة وتسلية ينبيء عن جهل بالإجابة يتوافق مع ذلك القانون البالغ عمره الآن أربعة عشر عام، غيرمسموح لكافر باتخاذ مدفن بالمقابر الإسلامية، قال كولدفاي، في الصحراء يمكن أن تأتي حيوانات ابن آوى وضباع وتلتهم المرء، في الفرات سوف تجرفه المياه، إذن؟

أراد كولدفاي عندما توافيه المنية أن يتم وضعه داخل جدار قوي بطول إحدى عشر متر على الجانب الشمالي لقصر نبوخذ نصر والإغلاق عليه بأسمنت، فكرة استطاع تخيل طريقة تنفيذها العملية لأول مرة بشكل واقعي في الجلسة، فور بدايتها مباشرة، ذلك لأنها لا بد أن تنفذ، هكذا فكر كولدفاي، إذ لم يكن ليترك المضيف ومفاوضات التنقيب مجددًا على الفور، وينسحب لفترة غير محددة إلى غرفته، حتى لو كان ذلك يعني تأجيل المفاوضات لأجل غير مسمى في المستقبل، نظر نحو رويتر الذي أخذ يدير الكاميرا هنا وهناك، بينما كان بدري بيك، المفتش التركي القادم من القسطنطينية المكلف بحراسة الموقع يقف دون حراك في ركن من الغرفة، وكأن هناك في كل لحظة من قد يلتقط له صورة، عندما صعد كولدفاي بعد الجولة السياحية التي أصبحت حاليًا شبه يومية من عند النهر، دون مرافقه الذي تركه خلفه واقفًا على ضفة نهر الفرات غارقا في أفكاره بخصوص مواضع دفن محتملة، كان بدري بيك يهم في عجالة بالابتعاد عن حديقته الصغيرة التي زرعها في حوش مبنى التنقيب حاملًا بعض الزهور، ثمرات الخيار والفجل، تلك الحديقة التي كان لا يريد أن يظهر أي صلة له بها عند وجود أحد أفراد المكان، كان بدري بيك يحاول إخفاء أنه لا يقضي الوقت المخصص لحراسة منطقة التنقيب في حراسة منطقة التنقيب، حاول كولدفاي إخفاء رأيه في أن رويتر استغل وقت الجلسة في تأمل وتقليب كاميرا اللوح الفوتوغرافي الجافة بين يديه، بطريقة تبدو وكأنه استخرجها لتوه من باطن الأرض في هذا المكان من أحد الأزمنة الماضية التي لا تحصى، والتي تعتبر رغم حداثة اختراعها قديمة من منظور الإمكانات التقنية للفيلم الملفوف، إلا أنها أيضا غريبة الاستخدام بالنسبة للمساعد الشاب، يعرف رويتر كيف يصنع أفضل أومليت (بالفطر وعشبة الرشاد)، متمكن من فن عمل الخيار المخلل (لا يسلق، يغطى بماء مغلي فقط)، كما أنه يجيد فن الاهتمام بالأشياء التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بذلك فقط، مثلا بالبيت العربي الحديث الذي كتب عنه رسالته لنيل

درجة الدكتوراة، البيت العربي بموقده الذي يعمل، وليس البيت البابلي القديم بمطبخه المتهدم، ذلك الموقد الذي لا يزال موجودًا أحيانًا ويمكن تصور طاسة أومليت فيه بخيال أعلى من المعدل المتوسط، تكون من كومة صغيرة من لبنات الحجر لا تجدي نفعًا، يمكن فقط التقاط صورته ليوضع مع عدم جدواه مزودة برقم داخل صندوق، هذا أيضا هو الصندوق الذي ينبغي وضع تلك الآلة عديمة النفع فيه، نظر كولدفاي إلى رويتر، نظر رويتر إلى كولدفاي، وشيئا فشيئًا بدأ رويتر يستوعب أنه لا يسهم في تقصير مدة الجلسة بمحاولته فهم الكاميرا، وأن الجلسة لن تنتهي بل لن تبدأ من الأصل حتى يفهم مساعد التنقيب الكاميرا، ذلك لأن كل شيخ من الحضور يتوقع الآن أن عليه الانتظار حتى يجهز رويتر الآلة بحيث يستطيع التقاط صورة للجميع.

وماذا عن تحريم التصوير؟ يبدو أن رويتر الآن لا يكترث كثيرًا بإغلاق فمه بعدما قام بنفسه بتثبيت قاعدة سلوكية جديدة يبدو أنها محت القديمة.

هز كولدفاي رأسه في داخله، أعاد سكب كأسٍ من الليمون لنفسه، ثم قدم الإبريق لرويتر، الذي ناوله بدوره لبودنزيج، الذي تناوب توصيله لفيتسل، أنه بعد كل هذه السنوات التي قضاها رويتر الآن هنا لا يزال لا يفهم أن أكثر ما يحب المسلمون عمله هو أن تلتقط لهم الصور الفوتوغرافية: كلما كنت مسلمًا أكثر ازداد لديك حب التصوير الفوتوغرافي! من منظور ديني لا يوجد مطلقًا أي اعتراض على الصورة الفوتوغرافية التي تعتبر فقط إعادة إنتاج لوجود ما، فصورة المرآة كذلك لا تنتجها يد انسان، بل ينتجها جماد، الصورة ليست انعكاس للطبيعة، كما وصفها داجير، وليست كذلك انعكاس لما يتفرد الله بخلقه، وهو ما يحب تحريم التصوير الفوتوغرافي الاستناد إليه، الصورة الفوتوغرافية نتيجة دائبة التطور لا تصل لحد الكمال لمزيج يتفاعل مع بعضه البعض مكون من مواد أولية عضوية، معدنية ومادية، نتاج عملية كيميائية: جزيئات من الفضة عاكسة تلتقط الضوء إلى أن يظل ملتصقًا بطبقة الجيلاتين لنيجاتيف الزجاج، كانت هذه هي المادة الحاملة للوحات الضوء الخاصة بكاميرا اللوح الفوتوغرافي، والتي كانت تتحمل الحرارة ولا تهدد بالاحتراق في الوقت الخاطيء على العكس من طبقة السيلولويد الخاصة بالأفلام الملفوفة الحديثة لكاميرات الأفلام الملفوفة الحديثة، ولأن الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية في برلين لم تحتمل حتى في شهور الصيف العيش بدون صور فوتوغرافية للّوحات الطينية التي أراد منظّروها ترجمة شيء منها وكتابة معاجم عنها، وإلقاء محاضرات بشأنها، أعادوا إدخال كاميرا اللوح الفوتوغرافي إلى بابل رغم تأخر ديليتسش الدائم لمدة تصل إلى نصف العام في إرسال ترجمات للوحات هامة لجزء معين في التنقيب فكان يرسلها بعد أن تكون بعثة التنقيب قد تقدمت لتعمل في جزء آخر، لم تكن الصورة الفوتوغرافية انعكاسًا للطبيعة، ولا

انعكاسا للضوء، لقد كانت انعكاسًا بواسطة الضوء، والضوء من لدن الله، وبهذا المعنى يكون التصوير الفوتوغرافي اختراع إلهي.